قضايا الشباب بين العلم والفلسفة

للأستاذ ابراهيم البطراوى

قليل من المصلحين الاجتماعيين هم أولئك الذين يبحثون مشكلات الشباب بحثاً جدياً خالصاً لوجه الحق. وأقل من هؤلاء أولئك الذين يوفقون في حل لا تتدخل فيه الأغراض الخبيثة ولا العناصر الذاتية التي تختلف وتتعدد تبعاً لاختلاف الأفراد وتعدد الجماعات.

والشباب بين هؤلاء وهؤلاء يضطرب في مسالك الحياة حائراً لا يدري — وسط هذا التناقض الفكري والمذهبي في كل مظاهر الحياة تقريباً — لا يدري ما يأخذ، ولا يدري ما يترك، ولا يدري ما يفعل؛ ولكن فيه طاقة فتية يتأجج أوارها ولا بد له من استنفادها على أي وجه من الوجوه.

وإنا لنراه — رغم تعدد السبل التي يسلكها في استجابته لرغباته وتزعاته — يصل إلى نتيجة واحدة هي (الشك): الشك في القيم والمثل، لأنها لم تتكافأ في الأخذ بناصره وتحقيق غايته؛ والشك في العرف والأوضاع، لأنها تجافاه في أكثر الأحيان؛ والشك في السياسة، لأنها تتعلقه لنيل مآربها؛ والشك في كل شيء حتى في نفسه، لأنه أصبح لا يرضى عن شيء حتى عن نفسه: لهذا نراه قلقاً متبرماً بكل شيء، ثائراً على كل شيء.

ويحاول المصلحون الاجتماعيون أن يعزوا هذه الظاهرة — ظاهرة الثورة في الشباب — إلى عوامل فسيولوجية وسيكولوجية (معينة) يستغلها أرباب المذاهب السياسية والاقتصادية في تحقيق غاياتهم بإثارتها بأنواع المثيرات المغرية.

ويبدأ أولو الأمر بمعالجة المشكلة على هذا الأساس، ولكنهم عبثاً يحاولون أن يصلوا إلى نتيجة.

وإنهم ليخطئون كثيراً حين يقدرون أنهم حصروا العلة في هذه الدائرة الضيقة.

والواقع أن الأمر أعظم وأخطر بكثير مما نتصور، بحيث تتضاءل بجانبه جميع الاحتمالات التي قدرنا حتى الآن: إنه يتخطى العوامل الفسيولوجية والسيكولوجية إلى ما وراءها: إلى تلك

فلا يضن بحياته على تلك القرية، ويندفع في سواد أبنائها يقاتل كما يقاتلون، ويسعه ما يسعهم من شظف العيش وعنائه، ثم يعدم ألا يبرح مكانه بينهم، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا. ويعين له فرستان، إحداهما في العراق والأخرى في الشام، ولكنه لا يحول من عهده الذي قطع، لينتهز فرصة العمل — على ماجته إليه — بينما اقتنصها الكثيرون من زملائه! وما زال الأستاذ (أحمد السبع) إلى اليوم هناك، يرتقب ما الله صانع، فيا الله المجاهد الكريم، فقد صدق الوعد وحفظ العهد!.

وهناك ثالثهم يعود إلى قريته «بروقين»، وهي التي حدثتك أنها: (نكرة في القرى)، بعد أن يجاهد حتى تنطلق في وجهه مسالك الجهاد، ويقبع فيها إلى أن تحل تلك الليلة المشؤومة، ليلة سقوط مدينة اللد، وهي منها على فلوة أو فلوتين. (ومنذا الذي لم يسمع بكارثة اللد وجارتها الرملة؟) وينطلق أهل القرية بعدون العدة للجلاء، ويتفقون على ذلك جميعاً كبيرهم قبل صغيرهم؛ ولكنه هو وحده يعارضهم فيما اتفقوا عليه، ويعلن لهم أنه لن يبرح مكانه حذر الموت، ولن يسلمه ما دام فيه عرق ينبض! فثبت بقوله خاثر العزائم، فلم يبرح أحد بيته!

٣٢ ٤٣

وما زال هذا الأستاذ المناضل هناك، يصدر جريدته (البعث) على مقربة من هذه القرية، ويضرب صفحاً عما يعرض له من فرص، وإن اختصاصه النادر يضاعف الحاجة إليه، وإن آثاره العلمية بين مخطوط ومطبوع، تدل على سعة اطلاعه في موضوعه الذي انصرف إلى التخصص فيه، ولكنه لم يستغل السانحة التي استغلها سواه، وذلك ثباتاً منه على مبدئه الذي آثر أن يحول عنه — على رغم ما حاطه من سيء الظروف — وقليل ما أنتم!

لقد سبق أن تحدثت في (الرسالة الزاهرة) عن هذا المجاهد، وأتيت على ذكر آثاره مفصلاً حين تحدثت عن ذوي الآثار العلمية في موضوع (الأدب في فلسطين) منذ عام. وذلك هو الأستاذ (عبد الله الريماوي)، ثالث ثلاثة جاهدوا فصدقوا، فحق لي أن أسجل جهادهم الصامت، وأنا أردد في أعقاب ما سردت قول الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

محمد سليم الرشدان

«ماجستير في الآداب والفلسفات السامية»

الحواجز القوية التي تضبطها وتمنع انفجارها وانحرافها ، بل وتحول بينها وبين الاستجابة لأي مؤثر في غير ما رسم لها .

نعم ، إن الاتجاه يهدف إلى ما وراء هذه الجزئيات ، إلى الكليات ، محاولا القضاء عليها حتى لا يكون ثمة شيء يقف في سبيله بعد ذلك . هذا الشيء الذي يخشاه أرباب المذاهب السياسية والاقتصادية ، ويحسبون له ألف حساب ، متحينين كل فرصة وكل وسيلة للقضاء عليه ، هو (الدين) . ويتذرعون بمختلف الحيل والأحابيل لإلغاء فطرة الله : تارة باسم الحرية الفردية ، وتارة باسم الأدب والفن ، وتارة باسم العلم والفلسفة ، وتارة باسم الوجودية ، وتارات بإشاعة الفجور ومغرياته بمهولاته من الحاديات وأشياء يزعمون أنها طابع العصر وعنوان المدنية !

والشباب موزع يحس صراعاً في ذات نفسه — من حيث يدري أو لا يدري — بين هذه الفلسفات والنظريات ، وبين ما ورثه من حقائق الدين ، وعقائد الألوهية ، ومواضعات العرف . ونتيجة لهذا تتشتت قواه وتنقسم شخصيته بين عاملي الشك واليقين ، ثم تتملكه الهموم ويتنازعه الشقاء ، وما يستتبع ذلك من نزعات منحرفة قد تودي بحياة الشاب في بعض حالاتها . وأظننا ما زلنا نذكر تلك النزعة الرومانتيكية التي طغت على أوربا حيناً فغشيتها آنئذ موجة الانتحار المشهورة ، والتي هوت على الشاعر الألماني الفيلسوف جوته سبيل الانتحار تخلصاً من يأس الشك ، حتى يرى ماذا يكون وراء الطبيعة ، أحقيقة هو أم كذب بقوله لنفسه : « لتقتحمي الطريق الذي يوصلك إليه حتى ولو اعترضتك نيران الجحيم المتسعرة » — لولا أن تداركه لطف الله . وربما يحدث غير ذلك ، فينغمس الشاب في الشهوات تخلصاً من آلامه حتى يهلك . وما إلى ذلك من مآس لا يسمح المقام بذكرها .

ولكن أين إذن موضع الحق من ذلك كله ؟

هذا ما سنحاول الكشف عنه فيما يلي :

رأينا فيما سبق كيف أن الاجتماعيين جانبهم التوفيق في تلمسهم أسباب الثورة عند الشيبة في حدود العوامل الفسيولوجية والسيكولوجية ليس غير ؛ فورطوا في غلطة لن يغتفرها التاريخ لهم أبداً ، وهي تصدهم بالعلاج السيكولوجي لنفسيات الشيبة ، فما ذا ترون إذن يكون هذا العلاج ؟

لا شيء عند السيكولوجيين غير حل العقد الفرويدية وما إليها بالطرق التي عرفها جميعاً ، وتوفير تجنب عوامل الكبت بما يسمونه (التنفيس) ؛ وفي سبيل هذا التنفيس يهون كل مرتخص وغال . ويجب قبل كل شيء أن نعرف أن الحياء مرض نفسي ، ولا يمكن أن تكون النفس كاملة إلا بإزالة هذا المرض الخطير (يعني بقلة الحياء) !

ومن أجل التنفيس لا بأس عندهم من إباحة شيء من المحرمات (ولكن في حدود الاعتدال) هكذا يقولون ! ومن عوامله في التربية الجنسية مثلا الاختلاط والرقص وترويج الوريقات الخليعة التي تسير على مذهب الصراحة الجنسية ، وما في هذا المعنى الفاجر .

وكأن لسان حال السلطات يقول : إن لم تكن هذه الأشياء مجدية ، فهي على كل حال ملهية ! إي والله ! إن هذا هو ما حدث !

ويل لهؤلاء المحترمين[1] إن سكتوا بعد اليوم عن هذه الحال وظلوا هكذا متشبثين بذنب الحية دون رأسها !

ألم يعلموا أن في هذا العلاج الجنسي والنفسي إشاعة للفجور ، وأن ترويج المفاسد والفجور هو أفتك سلاح قضى على العقائد والمبادئ حتى الآن ؟ !

والقانون الذي يمكن أن نستنتجه من استقراء حوادث التاريخ قديمها وحديثها هو [أن الثورات وليدة الفجور والإباحية التي هي معول الأديان والعقائد] . وإن أصحاب المبادئ السياسية والاقتصادية لا يمكن أن تتنسم مبادئهم الحياة إلا من طريق هذا الذي استنتجناه الآن وسميناه — ولو على سبيل المجاز — قانون الهدم الاجتماعي .

والقاعدة التي نستخلصها من تطبيق هذا القانون هي أن كل ملحد أو داع إلى إلحاد لا يمكن أن يكون غير واحد أو أكثر من هذه الثلاثة : (استعماري ، إباحي ، مغفل كالقرد لا هم له إلا أن يقلد ، فهم أو لم يفهم) . ولا يجوز أن يتعدى الملحد بأي حال هؤلاء الثلاثة .

تلك مقدمات لا بد منها لكي نعرف هل الملحدون الذين بلبلوا أفكارنا وورطونا في هذه الأزمات النفسية الخطيرة — يؤمنون حقاً بمبادئهم تلك ، أم أن لهم غايات أخرى وراء ما يظهرون ؟

وإنا كانوا هم لا يؤمنون بهذه النظريات ذاتها إلا بقدر ما تحقق لهم من أغراض كما أثبت التاريخ على نحو ما رأينا ؛ فواضيعة

(١) الذين يشيرون بالعلاج السيكولوجي دون غيره .

أحمارنا وزهرة شبابنا فى شىء ليس له حتى عند أصحابه وجود !

على أننا متى عرفنا هذا وتيقناه ؛ فلن تسحرنا أقوالهم ولن نقع — بعد اليوم — فى شباكهم ، وكفانا بهذه المعرفة العاملة سعادة !

والآن يبدو لى أننا بحاجة لأن نتملى الزمن لحظات عبر التاريخ فى سياحة علمية نلم فيها إلمامة قصيرة بشىء من مختل هؤلاء المثلين البارعين :

هذه هى فرنسا ظهر فيها فولتير وروسو « باسم حماة العدل ، ورافعى الظلم ، ودعاة الحرية بإثارة الفكر ، وهداية العقول » . وبدأ راهبا (الحرية) هذان ينشران مبادئهما التى تتلخص فى تسفيه الأنبياء وإنكارهم الألوهية بزعم أنها خرافات . وأن الدين الحق هو دين الطبيعة الحرة ، والمعبود الحق هو الشهوة ...

وبذلك حدثت المآسى الخلقية التى يذكرها التاريخ خجلا ، والتى رأينا صورة منها فى اعترافات روسو نفسه .

وعلى إثر قسم الناس بهذه الآراء قامت الثورة المعروفة على أنقاض الدين .

وهذه هى الروسيا لم تتمكن فيها مبادئ ماركس من الوجود إلا على أساس الشيوعية الإباحية التى أعقبتها الثورة على الدين والنظم السياسية والاجتماعية والقضاء على ذلك كله .

والأمثلة تفوق الحصر ولكن ليس هذا محلها : إنما اقتصرت على مثالين حديثين يذكرهما ويعرف تفاصيلهما كل منا ، وإن التاريخ أبج من أوله إلى آخره هو حجتى وبرهانى على صدق الأرقام التى ذكرت : فما من صاحب مذهب إلحادى إلا وله قصد غير الإلحاد فى ذاته .

أما فى الأمم التى لم تنضج ثقافتها فإنى أصدق أن فيها من يلحدون إخلاصاً للإلحاد فى ذاته ، أو لأن الإلحاد قال به ديكارت أو غلان من الناس ، أو للاشتهار بالمخالفة —

وبعلم الله أنهم — على حسب مقاييس سادتهم الغربيين — لا يفهمون من معانى هذه الألفاظ التى يتشدقون بها غير أسمائها ، وأن هذا التقليد الجاهل فيما يضر ولا يفيد — إن دل على شىء — فليس إلا على أحط دركات الانحطاط الخلقى والعلمى

أما الذين يدعون إلى الشك بدعوى العلم لأن ديكارت قد قال به فى يوم من الأيام ، فلست أدرى إن كانوا يفهمون حقاً منهج ديكارت ذاك ، هل شك ديكارت فى الأديان وفى العلوم وفى التاريخ وفى كل قديم لأنه قديم وكفى ؟ وهل كان يصل إلى نتيجة لو أنه قدر وحدث هذا ؟

ومهما يكن فماليت هؤلاء فعلوا ما فعل ديكارت ؛ إذن لكنا جنينا من وراثهم خيراً كثيراً كما جنت العلوم بل والأديان من نهج ديكارت هذا الذى يضللون به السذج ممن لم يعرفوا حقيقته

« جاء فى الجزء الثالث من دائرة معارف Chambero :

« من قواعد فلسفة ديكارت أن ما وجد فى الذهن واضحاً جلياً فهو حق يجب أن يسلم به تسليما » أين هذا من قولهم بالشك فى التاريخ والدين وفى كل قديم لأنه قديم وهذا حسبه ؟ « لم تكن مقدمة ديكارت راجعة إلى أنه شك ؛ ولكن إلى أنه اهتدى بالبحث إلى طريق وصله إلى اليقين » « على أنه حين أخذ الشك يساوره كان غلاماً ناشئاً لم تجاوز سنه العشرين (ولما يتم دراسته الجامعية) فشكه حينئذ لم يكن ليحتج به »

ولكنه على كل حال بحث وجدّ فى بحثه حتى توصل إلى أن قال كلمته المشهورة « أنا أشك فأنا إذن موجود » ثم قال بعد ذلك « إنى مع شعورى بنقص ذاتى أحس فى الوقت نفسه بوجود ذات كاملة ، وأرانى مضطراً إلى اعتقادى بأن هذا الشعور قد غرسته فى ذاتى تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال وهى الله »

وقد اعتذر ديكارت المكمل نفسه عما بدر منه أيام الشباب برسالة صغيرة أخرجها للناس فى سن الأربعين بين فيها كيف تخلص من أزمة الشك إلى اليقين بهذه الطريقة العلمية الرائعة التى يعرفها التاريخ باسمه عنوانها (مقال فى الطريقة).

ومن أهم مبادئها كما شرحت فى دائرة المعارف البريطانية

إننا لا نقبل شيئاً ولا نسلم به عالم يختبره العقل اختباراً دقيقاً ويتحقق من وجوده بما ليس فيه أدنى ريب ؛ فكل ما كان مصدره الحدس والتخمين يجب رفضه ونبذه قطعاً .

يجب أن يكون بحثنا على الترتيب الآتى من البسيط إلى المركب ومن السهل إلى الأصعب .

ومن أهم شروط صحة البحث ألا نحكم بصحة رأى أو مقدمة أو خطأ حتى نتحقق من ذلك بالامتحان .

ولو أننا طبقنا هذه الحقيقة على ما يرجف به السادة المشككون باسمه ، لقضت على آرائهم فى مهدها ، ولاستراح الشباب والشيوخ من سفسطائهم وترهاتهم —

(الكلام صلة) إبراهيم البطراوى